الحسناء

الجزء السابع — المجلد الثاني

بيروت شهر كانون الثاني سنة ١٩١١

زنوبيا
ملكة تدمر

هل يخطر لعقل الشرقي الناظر الى مدنية اليوم المعجب بارتقاء الدول وتقدم الاحوال وانتشار روح الحقائق والمعارف واحترام الحقوق ان في هذه البلاد التاعسة قام منذ نيف وعشرين جيلاً دولة عربية دستورية تحاكي اعاظم دول اليوم بما كانت عليه من العزّ والمجد المقرون بالعدل والمساواة والثروة والنشاط والاجتهاد في ترقية الصناعة والتجارة شأن الامم الحية الراقية ؟ او يخطر للقارىء ان نشوء هذه الدولة وتلك المدنية كان ناتج عن نشاط واجتهاد امرأة واحدة؟

تدمر مدينة قديمة على طرف الصحراء واقعة على بعد ١٢٠ ميلاً الى الجهة الشمالية الشرقيه من الشام . وقد دعاها الرومان باليرا كما تدعى في لغات الاجانب

مضى الهزيع الاخير من الليل واقبلت غزالة النهار تميس على هودجها المنير اللامع فخاضت بحار الغيوم السوداء طاردة امامها جيوش الظلام وارسلت من اشعتها سهام خرقت زجاج النافذة فاصابت من الراقدة وجهها الجميل وقد كساه الاصفرار فزادت به بهاء وجمالاً .

. . . . . .

خطوات يكاد لا يشعر بها فاعلها ويد مرتجفة ترفع الستار الحريري ووالد ووالدة يدخلان بهدوء تام يدل شحوب وجههما على انهما لم يناما ليلتهما وهما يظناها تبتسم لهما ، دعوها فلم تجب ، جسا نبضها فلم يجداه ، نظرا الصورة بجانبها فعلما انهما القاتلان وهيهات ان ينفع الندم

علت صيحات الأم وكثرت تنهدات الاب فتراكض جميع من في المنزل وكثر الصياح ولكن هيهات للراقدة ان تسمع او تجيب وصوت من قد بعيد اليها الحياة بعيد .

. . . . .

لا تزعجوا الراقد بعد مماتها فيكفيها علقم الظلم بحياتها ، دعوها تسير الى حيث اعتقدت سعادتها هناك .

. . . . . .

سار القوم بوقار والنعش تحمله الاكاليل الواردة من جميع اطراف المقاطعة لتزفرف فوق المريح ، واروا ذلك الجسد النحيل في التراب وضم القبر الصغير من ضاق بها العالم الكبير

. . . . . .

بسلام ايتها الراقدة ، بسلام يا من رأت تضحية حياتها خيراً لها من ان تنقب والديها او تخون حبيبها ، بسلام ايتها الراحلة الشريفة فان صدى صوتك يرن بمسامع بنات جنسك مردداً

« اموت محبةً بوالديّ وحفظاً لميثاق من اهوى فلا اسفاً على الحياة »

البليغه • مصر العليا •

ميشال حايك

اليوم · وقد اجمع المؤرخون على ان سليمان ملك اسرائيل بناها لان قوافله كانت تقطع البراري والقفار لتأتيه بمحصولات البلدان الاخرى وكان موقعها في وسط مقفر ماؤه غزير وهواؤه جيد وقد كان يزيدها القفر المحيط بها تحصيناً وهيبة · فكان منظر اسوارها المنيعة المرتفعة يملأ قلب من يراها جلالاً ووقاراً وما زالت خاضعة للرومان الى ان ارتقت عرشها الملكة زنوبيا تحت اسم ملكة الشرق (١)

وكانت زنوبيا من افضل النساء التي عرفها العالم حتى اليوم · كانت امرأة فاضلة تعرف ما هو الواجب وتقوم به فاحسنت تربية اولادها وتهذيبهم

واصبحت ملكة فلم تبطرها ابهة الملك ولا وسوس لها شيطان المطامع روح الفساد والاستبداد فحكمت بالعدل والمساواة فاحبها قومها واخلصوا لها الطاعة وانقادوا اليها كل الانقياد · وكانت على جانب عظيم من الجمال والرزانة والتعقل والفضل · فتجنبت كل ما من شأنه التثقيل على العقل والقوى الادراكية من الملاهي الفارغة والاعمال والافكار التي طالما اضرّت بعقول النساء وحجبت عنهن انوار الفضيلة والحقيقة

وكانت عالمة عاملة فالفت تاريخاً في الشرق · وكانت تعرف اللغات الارامية والقبطية وبعض اللاتينية واليونانية مع اطلاع واسع على تاريخ الشرق والغرب والمرجح انها تهذبت في مدارس الاسكندرية التي كانت محطّ رجال العلم في تلك الايام · وكأنّ المدرسة لم تشبع مطامعها من العلم والادب فكانت تاخذ دروساً خصوصية في البيت على الفيلسوف اليوناني لونجينوس الحكيم الذي قرأت عليه الياذة هوميرس · ولقد كانت منصرفة عن السياسة واوحالها الى بيتها ونفسها الى ان توفي زوجها الملك والمملكة ولاية تابعة للدولة الرومانية · فقامت

(١) الجنان — البستاني

وصية على ابنها الاكبر ورأت ان الحاجة تستدعيها لخدمة الوطن والجنسية فشمّرت عن ساعد الجد والاجتهاد وغرست اعلامها ونشرت سلطانها على مصر والشام والعراق وما بين النهرين واسيا الصغرى

وكانت تنسب نفسها الى البطالسة وتدعو كليوبطره العظيمة جدتها. وكان الفرق بينهما العفة والفضيلة التي تحصنت بهما زنوبيا طول ملكها. وحرّك هذا النسب طمعها لامتلاك مصر فقامت تدعي بحق الاستيلاء عليها وجهزت عسكراً جعلته تحت قيادة وزيرها زاباداس فانتصر انتصاراً مبيناً وكان ذلك بدء الفتوحات التي عادت على زنوبيا بالغنى والجاه والعظمة

ولما فرغت من توسيع نطاق ملكها واخضعت العالم الشرقي الذي كان معروفاً. وجهت همها الى تحسين احوال مملكتها الداخلية فبنت في بيروت القناطر التي لا تزال معروفة باسمها الى يومنا هذا — قناطر زبيدة —

وما زالت تنهض بالمملكة حتى جعلت تدمر صلة بين اسيا واوربا ومحوراً لصناعة الشرق ومركزاً لتجارته بل حوضاً تصب اليه الدنيا تجارتها وصناعتها ومما ساعدها على الارتقاء ضعف الدولة الرومانية وسوء الحال التي صارت اليه ايام الامبراطور غالليانوس . وكانت انموزجاً حسناً لرجال دولتها ومثالاً فاضلاً لنساء المملكة. وكان قلبها مملوءاً بمحبة العلم والخير للرعية والعمران والشجاعة والامانة والعدل . فكان سلوكها قاعدة لنساء المملكة وسداد رأيها امثولة لمن يحيط بها .

وكما نشر الفينيقيون اعلامهم على شطوط المتوسط . هكذا كانت دولة زنوبيا في داخل البلاد على ضفة الصحراء تشتد وتنمو وتزيد

قال تربيلوس المؤرخ الروماني — كانت هذه المراة العجيبة سمراء اللون سوداء العينين قوية اللحظ وكانت الهيبة والجمال والعظمة تلوح على وجهها . وكانت

اسنانها بيضاء كاللؤلؤ وصوتها قوياً وجهوراً وجسمها صحيحاً سالماً . وكانت الابتسامات لا تفارقها فعاشت بعظمة ملوكية مقلدة ملوك الاكاسرة . فكانت تضع العمامة على راسها وتلبس ثوباً ارجوانياً مرصعاً بالجواهر وكثيراً ما كانت تترك ذراعها مكشوفة

وقال كارنيلوس كابتوليوتس — كانت زنوبيا اجمل امرأة شرقية . وكثيراً ما كانت تجمع حكماء مملكتها وارباب الدولة للبحث والنظر في الامور فكانت تفوق الجميع في حسن سياستها ودقة نظرها فضلاً عن جمالها وهيبتها

وقال زيدان (١) كانت زنوبيا غريبة في اطوارها لم ينبغ مثلها في النساء شجاعة ودهاء فضلاً عن تفوقها في السياسة وسداد الرأي واللطف وصحة التربية مما لم يسمع باجتماعه في امرأة . وكانت سيرتها اقرب الى سير الابطال مما الى سير النساء . وكانت تجالس قوادها واعوانها وتباحثهم واذا جادلتهم غلبتهم بقوة برهانها وفصاحة لسانها . وكثيراً ما ضم مجلسها رجالاً من امم شتى وبينهم وفود من ملك الفرس او الارمن او غيرهما وقد يشربون حتى يسكروا وهي لا تسكر . ومع هذا كله لم تهمل اولادها فربتهم التربية الحسنة

غير ان الدول تدول والممالك تقوم وتسقط تلك سنة الله في خلقه فقد ارتقى الى عرش الرومان رجل من العامة قوي مجتهد نشيط — اوريليان العظيم — فاعاد المملكة الى عزها ومجدها وتظر عن بعد الى مملكة الصحراء وخشي ان تزاحم الرومان في امتلاك العالم خصوصاً بعد فتحها مصر فارسل يطلب من زنوبيا ان تتنازل عن مصر وما بين النهرين فاجابته تقول — اني بمعونة الالهة ساموت ملكة كما عشت ملكة . فجهز سنة ٢٧١ ق م جيشاً عرمرماً واتى قاصداً الشرق

(١) تاريخ العرب قبل الاسلام

فلاقته زنوبيا بجيوشها الى انطاكية فانتشبت بينهما المعركة الاولى وكانت زنوبيا في مقدمة الجيش راكبة حصاناً عربياً فابلت البلاء الحسن واوقعت الرعب في قلوب الرومانيين . وكانت تحرّض الجنود وتبث بهم روح الهمة والنشاط وتقول لا بد لي من دخول رومية في المركبة الذهبية . غير ان ذلك لم يمنع الجيش الروماني الكثير العدد عن اتمام انتصاراته فاذ جيش زنوبيا راجعاً الى حمص ومنها الى تدمر المدينة التي كانت يداً واحدة في خدمة الملكة المحبوبة

ولما وصل اورليان الى امام المدينة الواقفة وسط الصحراء — وسط السكون والهدو — ورأى مناعتها وشدة تحصنها مع علمه بحذق ملكتها وطاعة شعبها وتفانيه في خدمتها اوجس خيفة . وطال الحصار دون فائدة . وكان المجلس الدائر في روميه يشكو من اطالة الحرب فكتب اورليان في ذلك الى المجلس يقول :

يقول الرومانيون اني احارب امراة . والحقيقة اني احارب ملكة عظيمة ولو كان الذين يشكون مني يعرفون من هي زنوبيا لكانت شكواهم مدحاً لي . ان تلك المراة عظيمة في قوتها . عظيمة في اصالة رأيها وحكمتها وشهامتها . وكأني بشعبها يعبدها عبادة . وفي كل الحروب التي اقمتها باسم رومية العظمى لم يقف في وجهي عدو كهذه المراة ولكني بمعونة الالهة سانتصر عليها (١)

وكانت الذخائر والمؤنة تكاد تفرغ من تدمر فنظرت زنوبيا بعين الحكمة والتعقل وادركت الخطر الشديد المحدق بمملكتها فارتأت ان تضحي نفسها في سبيل وطنها فجمعت اركان مملكتها واخبرتهم ان اورليان لما عجز عن فتح المدينة بالقوة عزم على فتحها بالجوع وقررت ان تذهب وتطلب النجدة بنفسها من ملك فارس . وعبثاً حاول رجال دولتها منعها اذ علمت انه لا يمكن لاحد القيام بحق هذه الخدمة

(١) تاريخ الملوك وزنوبيا لوليم ريت

سواها فخرجت خفية من تدمر الى ان وصلت نهر الفرات وكان الرومان قد شعروا بخروجها فتعقبوها وادركوها وقد ركبت قاربًا لتقطع الى الضفة الثانية فتنجو. غير ان البخت الذي يظهر في دقائق شديدة كهذه مكن جيوش الرومان من استلام القارب الثاني المعد لحرس الملكة واسرع المجدفون بالتجذيف فادركوها وبينها وبين النجاة شيء قليل

ثم حملوها الى اورليان وقد شعرت انها فقدت كل عزيز وثمين لديها

ودفع الجوع اهالي تدمر فسلموا مدينتهم لاورليان فنهبها وارسل ما كان فيها من الذهب والفضة والجواهر الى خزائن رومية . ثم قيد زنوبيا وابنتها وابنها بقيود الذهب وحملها معه الى رومية حيث قضت نحبها هناك

هذه سيرة امرأة شرقية عظيمة * واني لا اقيس عظمتها بملكها ولا احسبها عظيمة لكونها ملكة — لان العظمة الحقيقية تقوم بكمال النفس وتتميم الواجب وتهذيب الاخلاق وتعويدها على الارتياح عند اتيان كل عمل حسن ومفيد — وكانت هذه السجايا والصفات الحسنة متجسمة في المرأة البدوية الفاضلة

فما هي الامثولة التي يمكننا ان نتعلمها من تاريخ هذه المرأة .

اولاً — ان اكثر نساء اليوم يطلبن العظمة الفارغة ويسعين اليها من طرق مختلفة . فحري بهؤلاء ان يتشبهوا بهذه البدوية التي تركت المملكة وشؤونها لزوجها وانصرفت الى مملكتها الصغيرة — الى اولادها وبناتها فربتهم التربية الحسنة التي تؤهلهم ليكونوا رجالاً في المستقبل

ثانياً — قيامها بالواجب ومعرفتها حقيقة نفسها . فلقد كانت زنوبيا اجمل نساء زمانها فلم تبطرها الكبرياء ولا استرسلت في التخيلات والاستسلام للعواطف . بل لم يجمع مجلسها الا كل مفكر عاقل وحكيم ولم تخرج مباحثها عن حدّ الاجتماعيات

والادبيات وهل من تجهل مجتمعات نسائنا في هذا العصر

ثالثاً — لما توفي زوجها الملك وابنهاولّيها صغار رأت الحاجة تدعوها لخدمة الوطن والامة فخلعت عنها ثوب المرأة واظهرت من التعقل والعزم والحزم والامانة في العمل ما جعل رجال دولتها يقتدون بها ويخلصون الطاعة لها ويضعونها في مصاف القليلات اللواتي يحق للشرق ان يفتخر بظهور امثالهنّ تحت سمائه

بيروت — المدرسة الكلية السورية توفيق مفرّج

المرأة السيامية

سألنا صديق الحسناء الخواجا حبيب بطرّاني المقيم في بنكوك عاصمة سيام ان يوافينا بوصف المرأة السيامية لننشره فيها · فاجاب: تسألني عن المرأة السيامية وتطلب مني ان اكتب عنها شيئاً لحسنائك خدمةً لسيداتي الحسان · فخذ مجملاً بعض حالاتها ·

فهي معبودة دلالاً جميلة · عبدة ذليلة شنعاء · عاملة جادّة وسط · متغطرسة خيلاء غنية · كاسلة خاملة فقيرة · قانعة مرتضية وسط ·

وفي كل حالاتها تقريباً لا تحب ان تفكر بالغد ولا ان تهتم بما سيولده · ومع ان لها الحق بمشاركة زوجها في كل شيء اذ يكون لها ما له وعليها ما عليه · فهي لا قانون للزيجة لها · هي زوجة كل من يساكنها الى ان يضجر منها فيستبدلها · ويطلق عليها اسم البنت طالما لم تلد

ولقد ضاعفت في المرأة محبة تعداد الزوجات عند السياميين حب المحافظة على الجمال والقوى الجسدية مع شدة ميل الى الفتوة والنحافة · وهي غيورة حسودة صبورة تحين الفرص للانتقام وتستبيح احياناً ما تأباه الحرّة الكريمة للتأثير على رجلها واما مايلحق ذلك من عوائدها الخصوصية في ادابها واديانها فذكره يستغرق وقتاً طويلا